

وصعدت وصوبت، ثم أخلفت ما وعدت، وأخذت ما ولدت حين انقطعت، وعلى ذكر الذنب والمشفر اقتصرت ولو كنت تعرف شيئاً من قوانين الكلام وأنواع المنطق ورسومه لم تحرف القول عن جهته ولم تضعه في غير موضعه، أما علمت يا عاجز أن مثل هذه الفاتحة إنَّما تجعل مقدمة لأمر عظيم الشأن فائت الوصف متناهي الغاية في معناه كقول الله تعالى "الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة" و"القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة" فذكر يوم القيامة وأتبعها من ذكر أوصافها وعظيم أهوالها ملاق بالمقدمة التي أسفلها وصدر الخطبة بها فقال "يوم يكون الناس كالفرش المبعوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش" إلى آخر السورة وأنت علقته هذا القول بدابة يدركها البصر في مدى اللحظة وبحيط بمعانيها العلم في اليسير من مدة الفكر، ثم اقتصرت من عظيم ما فيها من العجب على ذكر المشفر والذنب، فما أشبه قولك هذا ألا بما أنشدنيه بعض شيوخنا لبعض نظرائك.

وأنى وأنى ثم أنى وأننى *** إذا انقطعت نعلى جعلت لها ششعا
 أى صغير ما أتيت به في عجز كلامك من عظيم ما أصميته في صدره، ويسير ما رضيت به في آخره من كثير ما أنميته في أوله، واذ قد دلتك فيالة رأيك وسوء اختيارك على معارضة القرآن بذكر الفيل وأوصافه فهلا أتيت بما هو أشف فيلا، وأشفى وأجمع لخواص نعوته وأوفى، فتذكر ما أعطيته هذه البهيمة العجماء من الذهن والفتنة التي بها تفهم سائسها ما يومء به إليها من تدبيره، وهلا تعجبت وعجبت من ذلك من حسن مواتاتها وطاعتها له إذا أغراها، وقرب ارتداعها إذا زجرها ونهاها، وهلا قرنت إلى ذكر مشفرها ذكر نابيها اللذين بهما تصول وبسناهما تطعن وتجرح، وكيف أغفلت أمر أذينا العريضتين اللتين تلحفهما وجهها، وتذهب بتحريكهما البق الذباب عن صماخيها وعينيها، وبهما تروح على نواحي رأسها، وكيف لم تفتن لموضع التدبير من قصر رقبتها